وجداري يحميني!

في حُلمك ... تهرب ... تشرب من نهرٍ مالح يوقد ظمأك ... تتصارع ... ترغبُ في أن تخسر، علّكَ لا تستيقظ أبدًا ... علّكَ تتخلص من وحشِك ... علّكَ تغضب. في نهارِك ... مصحوبًا بالقهر من أُمٍ مكلومة، لطبيبٍ قفْر العقل ... لم يتمكن يومًا من أن يفهم مأساتك، فيُرجِح حالك لكونِك طفل، وكون كوابيسك خيالات ليلية وحسب. ثم تعودُ إليه ... يقتُلك بتلك النظرةِ في عينيه، كونُكَ مسكينٌ لا يشفع لك ... تتركه يُعنف أُمك عن فعلٍ أحمق ارتكبته، يسألُها ما بال ولدنا أراه مصحوبًا لطبيب؟ وما بال الكوابيس تنالُ من هذا المسكين؟ ... ما عاد الولدُ طفلَ صغير، ألم يتعد لتوِه التسع سنين!

أتذكرُ هذا اليومِ تمامًا ... يومَ ظننتُ أنهم سيقيمون عليّ حدَ السرقة، كوني أكلتُ بيدي اليُسرى، كوني كتبتُ بيدٍ أُخرى غير المفروضة عليّ ... يومها نهروني أشدّ النهر، قهروني أجمّ القهر، تركوني حبيس الغُرفة طويلاً، لا أسمع سوى كلماتٍ تتكرر ... (كُل بيمينك، اكتب بيمينك، نم على يمينك) ... فبِتُ أنامُ يميني، كون جداري بجواري يحميني مما قد يأتي إليّ.

وفي يومٍ قالوا نومَكَ على جنبٍ أيسر هو نومُ الكافر، ويمينُك يجعلُ منك المؤمن؛ فبتُ أنام على الجنبين، ولم أشعرُ بأيّةِ فارق ... أنا كأنا، مؤمن لا يفهم معنى الكافر، أو كافر لا يفهم معنى الإيمان. في اليوم الآخر رأوني على وجهي أنام، يومها أدركتُ أن الخطبُ أعظم، وأن النومة هذه نومة شيطانٍ فاجر... لكنني لم أرَ أيّة شياطينٍ فُجر.

أتذكرُ لمّا سمعت حديثًا عذبًا، أن كونِك على ظهرِكَ نائم، كونك تتأمل قد يجعلُ ذلك منك العالم ... فتأملتُ مليًا تلك الليلة، ربما أضحيتُ كذلك، لولا حديثه إليّ ... يومها أخبرني: "يا ولدي ما كُنت لتكون من العلماء، ولو بعد عناء."

يومها أدركتُ الرغبة العُظمى لديّ، أني في حاجة إلى شيطاني الأخرق، فمسحتُ بوجهي في فراشي كمراسم لاستدعائه، وشعرتُ برغبة في تحطيمِ وجهٍ أحمق يومًا عنفني، ويومًا أشفق، ويومًا رغِبَ لو أنّي لم أولد قط ... في ذاتِ الليلة، لم أتمكن من نومي... في ذاتِ الليلة، رأيتُ عبارة أتذكرُ يوم أن كتبتها الأُم بدمِها فوق جداري ... ترانيم عجيبة غريبة، من سِفرٍ تبعثُ فيك طُمأنينة ... وكأني أراها الآن لأول مرة ... وإذ بشيطاني يصيرُ خيالاً جامحا.

في ذاتِ الليلة، وأِلتُ يميني وصرتُ أُرددها ... في ذاتِ الليلة، ما عادت أحلامي تأتيني، والنهرُ المالحُ أمسى عذبًا يرويني، يومها أدركتُ لأولِ مرة معنى إيماني، وكونَ جداري يحميني.